الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المركز الجامعي العقيد أكلي محند أولحاج بالبويرة
معهد اللغات والأدب العربي
قسم اللغة العربية وآدابها

العنوان:

الحس الثوري في شعر مفدي زكريا

مذكرة التخرج لنيل شهادة الليسانس

إعداد الطالبتين:

محمد مرابط سعيدة

بن قاقة الياقوت

إشراف الأستاذ:

علي لطرش

السنة الجامعية 2011/2010

كلمة شكر

نتقدم
بكل عبارات
الشكر والامتنان
إلى
كل من سهر معنا
وقدم لنا يد المساعدة
لإنجاز
هذا العمل
نخص بالذكر
الأستاذ المشرف
علي لطرش
الذي لم يبخل علينا بنصائحه وتوجيهاته في
مراحل هذه
المذكرة
إلى أعوان مكتبة الأدب العربي
خاصة حورية وغنية

سعيدة- الياقوت

الإهداء:

الحمد لله رب العالمين أنزل القرآن تحدى به الإنس والجان
علّم الرسول روائع البيان

وجعل محبته شرطا للإيمان
وطاعته فوزا بالرضوان
أما بعد
إلى من قال فيهما الرحمن
"واخفض لهما جناح الذّل من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرا"
إلى سبب الوجود وبحر العطاء والجود
أبي الغالي
إلى حديقة الأقحوان ومنبع الحنان والإطمئنان
أمي الحبيبة
إلى رفيق دربي وشريك حياتي حفظه الله في الدنيا والآخرة
زوجي
إلى إخوتي وأخواتي
إلى من قاسمتني هذا العمل المرحة البشوشة بن قاقة الياقوت
إلى زملائي بالعمل بمتوسطة مالك بن نبي
إلى كل من حضر في قلبي
وغاب عن قلمي
أهدي ثمرة جهدي هذه

سعيدة

الإهداء:

باسم الله الرحمن الرحيم
"وقل اعملوا فسيرى الله عملكم والمؤمنون"
إلاهي لا يطيب الليل إلا بشكرك، ولا يطيب النهار إلا بطاعتك، ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك ولا تطيب الآخرة إلا برؤيتك.
إلى من بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، إلى نبي الرحمة ونور العالمين محمد الأمين عليه أفضل الصلاة والتسليم
إلى الظل الذي آوي إليه في كل حين...إلى التي وضع الرحمن تحت قدميها الجنان...
....أمي
إلى من علمني أن أصمد أمام أمواج البحر الثائرة...إلى من أعطاني ولم يزل يعطيني بلا حدود...أبي
إلى قرة عيني... إلى جنتي في دنياي وآخرتي...
زوجي

إلى من تربعوا في عرش قلبي، إلى شموع حياتي وأنوار آمالي أخواتي
فاطمة الزهراء وزوجها عياش، ربيحة وزوجها مبارك، فريدة وزوجها مصطفى، سارة، خليصة
إلى الصباح الذي أشرق بعد سنين طوال...إلى رمز المحبة والإخاء أخي العمري
إلى من لا استطيع التعبير عن مشاعري اتجاهه...أخي الصغير المشاكس سليم
إلى أخوالي وأعمامي وزوجاتهن
إلى خالاتي وأزواجهن
إلى من قاسمتني هذا العمل الحزينة سعيدة
إلى من تحلّو بالإخاء وتميزوا بالوفاء... إلى صديقاتي بالإقامة كل واحدة باسمها
إلى أسرة الاتحاد الطلابي الحر
إلى كل أساتذتي عبر الأطوار المختلفة
إلى كل من يعرفني من قريب أو من بعيد
إلى كل هؤلاء جميعا
أهدي ثمرة عملي

الياقوت

مقدمة:

إن الاستعمار الفرنسي للجزائر كان من أهم أسباب نمو الحس السياسي الوطني عند الشعب الجزائري، مما خلق ثقافة الرفض والتحرر ونبذ الخضوع، فقد كان رد فعل الشعب الجزائري للدفاع عن بلاده بحمل السلاح تارة وبالقلم تارة أخرى، وقد ساهمت في تحرير البلاد بالخصوص الفئة المثقفة التي حاولت بأقلامها نشر الوعي السياسي بضرورة التصدي لهذا الاستعمار الظالم، وقد كان الشاعر مفدي زكريا أحد الذين ذادوا بالكلمة عن الوطن بما أنتج من شعر وطني تحرري رافضا ومتمردا على كل أنواع العبودية والاحتلال.

ورفض الذل والطغيان في شعر مفدي يعد أحد مقومات الحس الثوري الذي تولد في نفس مفدي، إذ ترجم بصدق وعن قرب الويلات التي عانى منها الشعب الجزائري مؤكِّدا أن ما أخذ بالقوة لن يسترجع إلا بالقوة، وقد كانت غايته التصريح بضرورة مواجهة الاستعمار وطرده بكل الوسائل، لذلك اخترنا الشاعر مفدي زكريا الذي اتخذ من الكلم سلاحا باعتباره رمزا من رموز الاتجاه الثوري لما بثه بشعره الثوري من حماس في نفوس الجزائريين.

ونهدف من وراء هذا البحث إلى الإجابة على السؤال التالي:

كيف وظف مفدي زكريا غرض الرثاء في إبراز الحس الوطني الثوري؟

وقد اتبعنا المنهج الوصفي التحليلي كونه الملائم لهذا النوع من الدراسات منتهجين الخطة التالية: مقدمة متبوعة بالفصل الأول والفصل الثاني وأخيرا الخاتمة، وقد خصصنا الفصل الأول لإعطاء نبذة عن حياة مفدي زكريا، مفهوم الثورة، مفهوم الشعر الثوري ثم مظاهر ومصادر الحس الثوري عند مفدي زكريا، أما الفصل الثاني فقد تطرقنا فيه إلى الرثاء عند القدماء، الرثاء عند المحدثين ثم الحس الثوري في شعر مفدي زكريا.

ومن أهم المراجع التي اعتمدنا عليها في دراستنا هذه: اللهب المقدس لمفدي زكريا حواس بري في كتابه شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم ويحي الشيخ صالح في كتابه شعر الثورة عند مفدي زكريا، إضافة إلى بعض المراجع الأخرى.

في حين أن الصعوبات التي واجهتنا في انجاز هذا البحث هي نقص المراجع التي تناولت مفدي زكريا بالدراسة، إضافة إلى نقص المراجع بمكتبة الجامعة مما حتّم علينا الذهاب إلى المكتبة الوطنية قصد الحصول على مراجع أخرى تعيننا على انجاز هذا البحث.

الفصل الأول

1- حياة مفدي زكريا:

عاش الجزائريون تحت وطأة الاستعمار زمنا طويلا، حرمهم من الحرية والعيش الكريم مما جعل أهلها يحاولون وبشتى الوسائل الدفاع عن أنفسهم.

وقد كان مفدي الطفل أحد الذين فتحوا أعينهم على تلك الظروف القاسية "فالتحق بالكتاب كغيره من أبناء القرية ليحفظ القرآن الكريم، ويتعلم ما تيسر له من علوم الشريعة الإسلامية" [1] وظل يتردد بين تجارة والده بعنابة ومسقط رأسه ببني ميزاب بغرداية إلى أن اختير كأحد أفراد البعثة العلمية الميزابية التي قصدت تونس برئاسة أساتذة كبار من أمثال: الشيخ محمد الثَّميني، الشيخ ابراهيم بن الحاج عيسى وصالح بن يحي وغيرهم من العلماء الذين درس على أيديهم دروسا دينية ووطنية متنوعة.

ولما التحق بمدرسة السلام القرآنية التونسية مكث فيها سنتين، لتعلم مبادئ العربية والعلوم الكونية على يد بعض الأساتذة من أمثال الشاذلي الموالي، عبد العزيز الباروني، كما تعلم مبادئ اللغة الفرنسية على يد الأستاذ صالح بن الأحمر فتحصل على الشهادة الابتدائية من هذه المدرسة ثم دخل المدرسة الخلدونية أين درس الرياضيات والجغرافيا والتاريخ الإفريقي، وبعدها التحق بجامع الزيتونة مما أهله للإطلاع على كتب النحو والبلاغة والأصول ككتاب فقه اللغة للثعالبي وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري...إلخ.

كما كان يحضر الندوات الأدبية في مدرسة الترجمة للغة العربية العليا التي كان يديرها الأديب العربي الكبادي، ثم عاد مرة أخرى إلى المدرسة الخلدونية ليحصل منها على الشهادة الثانوية ويحسب على هؤلاء اهتمامهم بالنشء إذ لم يكتفوا بتلقينهم الدروس في اللغة وآدابها والشريعة وحسب، بل حرصوا على تكوينهم الثقافي والسياسي والديني.[2]

ولعل نشأته في حضن عمه الشيخ صالح بن يحي الذي يعتبر أحد الأقطاب الذين أسسوا الحزب الدستوري بتونس، واحتكاكه بالزعيم الوطني عبد العزيز الثعالبي وأبي إسحاق وابن باديس مكنت مفدي الطفل من الاطلاع على كل صغيرة وكبيرة من حوارات ومناقشات بينهم فتأثر تأثرا كبيرا، وكان يرى فيهم النموذج للغيرة على الدين والوطن، وبذلك تربى على حب الوطن والحرية والاعتزاز بالدين واللغة والوطن، وبما أن جو تلك البعثات كان حافلا بكل ما

1- حواس بري، شعر مفدي زكريا: دراسة وتقويم، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص27.

2- ينظر: رابح لونيسي، مفدي زكريا شاعر الثورة، دط، دار المعرفة، الجزائر، ص6،5.

يحتاجه الرجل المسلم والفتى الوطني القادر على تذليل كل الصعاب، انعكس ذلك كله على مفدي الذي أصبح شابا وطنيا ورجلا ثوريا وشاعرا صارخا في وجه المستعمر.[1]

ولعل خير دليل على ما سبق قول الشيخ عبد الحميد بن باديس واصفا أجواء البعثة إلى تونس في سنة 1921 في مقال له بجريدة النجاح الجزائرية تحت عنوان 'نهضة جزائرية بالحاضرة التونسية' قائلا[2]: "إن الشعور الوطني إذا انعم القلوب لابد أن تظهر ثمراته في الأعمال حتى تبلغ الأمم غاية الكمال، فهو كالماء تخت الجبال لابد أن ينبعث فتنشق له الحجارة وتتفجر منه الأنهار..."[3] ، فقد كان للبعثة الميزابية إلى تونس دورا كبيرا في صقل موهبة مفدي الشاب الطموح حين أسندت له مهمة رئاسة تحرير مجلة الوفاق وكتابة صفحاتها بخط يده، فكتب فيها شعرا ونثرا وما جاءت به قريحته في الأجناس الأدبية الأخرى.

ويضاف الى دور البعثة الميزابية دورا آخر لعبته البيئة التونسية أين عاش مفدي، والتي تميزت بكثرة الأندية الأدبية والصحف التي فتحت المجال أمام كل ذات مبدعة تطمح دخول الحياة السياسية والفكرية والأدبية.

فهذه الأسباب لعبت دورا هاما في شاعرية مفدي، إضافة إلى الاطلاع على أمهات الكتب في اللغة العربية وآدابها، مما جعل أساتذته يعترفون له بذكائه الحاد وحضور البديهة والإحساس الرهيف والشعور المتدفق، فأصبحوا يطلبون منه اطلاعهم على ما أنتجه من شعر ونثر، إذ كانوا يشجعونه على المضي في مجال الشعر ونظمه في المناسبات المختلفة والأحداث الهامة.[4]

ومن باكورة ما دخل به مفدي الحياة الأدبية قوله في رثاء كبش العيد والتي نشرت بجريدة لسان الشعب بتونس بتاريخ 08 سبتمبر 1925، وقد صرح بذلك بعد الاستقلال في حوار له بجريدة 'الشعب الثقافي' بتاريخ 05 أوت 1975 قائلا: "حياتي الأدبية متصلة اتصالا جذريا بنشاطي القومي، وقد شرعت في قرض الشعر سنة 1925 بقصيدة رثاء كبش العيد بعيد الأضحى متأثرا بمذهب أبي العلاء المعري وأتذكر طالعها وبيتا آخر":[5]

1- ينظر: محمد ناصر، مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، دط، المطبعة العربية، 1984، ص 8،7.
2- ينظر: حواس بري، شعر مفدي زكريا: دراسة وتقويم، ص30.
3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
4- ينظر: رابح لونيسي، مفدي زكريا شاعر الثورة، ص9،7.
5- محمد عيسى وموسى، كلمات مفدي زكريا في ذاكرة الصحافة الوطنية، دط، مؤسسة مفدي زكريا، الجزائر، 2003، ص304.

لهفي على شاة لنا قد قيدت للذبح وهي نقية الأردان
استصغوك فلذّ لحمك عندهم هلاّ استلذّوا لحم ليث قان[1]

"وأضربت -كما يضيف- ستين يوما عن أكل اللحم، حتى إذا اثبت من توبتي، أصبحت أخب اللحم بأصنافه الثلاثة، متبعا في ذلك توصية الجاحظ في ثلاثياته... "[2]

ومما لاشك فيه أن قد تشرب الإنتاج الإحيائي الوارد من المشرق العربي، إذ كانت مجلة الشهاب وجريدة البصائر تنشران شعر شوقي والرصافي وحافظ من مصر، مما مكن مفدي من الاطلاع على شعرهم والكتابة على منوالهم، كما أنه تأثر ببعض الشعراء الذين عاصرهم وكان على صلة مباشرة بهم كأبي القاسم الشابي في تونس ورمضان حمود في الجزائر، "ومع مطلع العشرينيات شرعت جذوة الحس الوطني تتّقد اكثر من ذي قبل، مما أشعل فتيل صراع فكري بين الفكر الوطني القائم على العربية والإسلام والجزائر من جهة، وبين سياسة الاستعمار والفكر الوطني الموالي له..."[3]

وبالتالي فالجو الذي عاش فيه مفدي مهّد لولادة بطل ثائر بالدرجة الأولى، إذ يقول عن نفسه في أخد التصريحات "شغفت بالآداب طفلا وبتاريخ الأبطال عن عظماء الأوطان"[4]، وهذا يدل على أن مفدي خليق لأن يكون سياسيا له مواقفه وآراؤه التي تبلورت فيما بعد في شعره.

فقد عرف النشاط السياسي في سن مبكرة، إذ التحق بحزب نجم شمال إفريقيا كعضو فيه مباشرة بعد عودته من تونس، إلاّ أن هذا الحزب حلّ من طرف السلطات الاستعمارية، فتأسس بدلا عنه حزب الشعب الجزائري سنة 1936 أين عمل مفدي كأمين عام للحزب وأصدر العدد الأول من الجريدة الخاصة

بالحزب 'جريدة الشعب' يحيّي فيه الأحزاب الأخرى ويدعو لحزبه بالدوام، فتجلت معاني حب الوطن في قوله[5]:

فداء الجزائر روحي ومالي ألا في سبيل الحرية
فليحي حـزب الاستقلال ونجـم شمال إفريقية

1- نقلا عن: محمد عيسى وموسى، كلمات مفدي زكريا في ذاكرة الصحافة الوطنية، الصفحة نفسها.
2- المرجع نفسه، ص69.
3- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث: تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلام، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص60.
4- حواس بري، شعر مفدي زكريا: دراسة وتقويم، ص35.
5- ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وليحي الشعب الغـالي مثال الفداء والوطنية[1]

ومن هنا بدأت تظهر مواقف مفدي الثورية التحررية الداعية إلى التخلص من الاستعمار نابذا فكرة الحلول الوسطية التي تسعى إلى تحسين الظروف في ظل الاستعمار، فهذا الأخير –فـي نظره- مهما يكون شكله ونعه فهو نفسه لا يتغير، وبالتالي فلا قيمة لأي ازدهار ما لم التحرّر النهائي.

ولعل هذا الموقف الثابت حول الاستعمار جعل من مفدي خطا متميزا وفاصلا في مسيرته السياسية والنضالية، وصوتا متفرّدا بين أصوات الشعراء الجزائريين، وجعله في نفس الوقت عرضة للآلام والمعاناة، الملاحقة والسجن وبذلك "أصبح الجزائريون يجاهرون بمشاعرهم الوطنية ويتعصبون لها".[2]

وقد كان مفدي يدعو إلى مواجهة الاستعمار وتحرير الجزائر بأسلوب المواجهة الصريح وهذا ما منعه من الانضمام إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان يقتصر نشاطها على الجانب الديني والثقافي، وهذا لا يعني إطلاقا أنه كان ضدّ الجمعية وإنما لم يعجب فقط بأسلوبها النضالي باعتباره كان يفضل الجهر بمقت الاستعمار والدعوة إلى التحرر، فهو لا يحب الخضوع للذل ويعشق التحدي، مما سهل من مهمة الدولة الفرنسية التي اتهمته بالتآمر خولها فاعتقلته وسجنته بسجن بربروس لمدة سنتين كاملتين بين سنة 1937 و1939.[3]

ولعلّ إيمان مفدي بأن القلم مجداف سفينة الثورة جعله يواصل نضاله بقلمه داخل السجن وذلك بالمشاركة في تحرير جريدة 'البرلمان الجزائري' التي صودرت بعد زمن قصير من صدور عددها الأول، وبعد خروجه واصل النضال السري مع رفاقه في حزب الشعب المنحل إلى غاية سنة 1947 عندما حدثت انقسامات في الحزب أدت إلى ظهور الحزب تحت اسم 'حركة الانتصار للحريات الديمقراطية' وإنشاء منظمة خاصة للإعداد للثورة المسلحة، والتي عملت في سرية تامة إلى غاية الإعلان عن اندلاع الثورة التحريرية الكبرى في الفاتح من نوفمبر 1954 والتي باركها بنشيد قسما.

1- نقلا عن: حواس بري، شعر مفدي زكريا: دراسة وتقويم، ص35.
2- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية '1930-1945'، ج3، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ص37.
3- ينظر: يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا: دراسة فنية تحليلية، ط1، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 1987، ص42، 43.

وهكذا ظل مفدي يواكب الأحداث الثورية بقصائده تارة مشجعا وأخرى مفتخرا رغم مطاردته من طرف الاستعمار واعتقاله مرة أخرى سنة 1956.

وبعد استقلال الجزائر راح ابن تومرت يجوب الأقطار العربية معرفا بالثورة المباركة في كل الملتقيات، أين وجد التقدير والترحيب من كل الأشقاء لشخصه والإكبار والإجلال بالثورة الجزائرية إلى

أن وافته المنية في ذات السابع عشر من شهر أوت سنة 1977 على إثر سكتة قلبية بعد أن أدى فريضة الحج مع زوجته.[1]
وقد تقلّد العديد من الأوسمة منها:
- طابع بريدي يحيي الذكرى العشرين لوفاة الشاعر، خامل لوسام الكفاءة الفكرية من الدرجة الأولى من عاهل المملكة المغربية محمد السادس.
- وسام الاستقلال ووسام الاستحقاق الثقافي من رئيس الجمهورية التونسية لحبيب بورقيبة.
- وسام المقاومة من الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد، وكذلك شهادة تقدير على أعماله ومؤلفاته تقديرا له على جهوده ونضاله في خدمة الثقافة الجزائرية.
- وسام الأثير من مصف الاستحقاق الوطني من الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة.[2]

2- مفهوم الثورة:
*** لغة:** هي الهيجان، الغضب والوثوب والظهور.
*** اصطلاحا:** هي عدم الرضا بوضع ما والتعبير عن ذلك بالرفض والهيجان وذلك بالقيام برد عنيف، أما في المجال السياسي فيستخدم مصطلح الثورة للتعبير عن تحرك عنيف يقوم به شعب ما ضد سلطة ما لا تمثل ذلك الشعب ولا تلبي رغباته، وذلك قصد الإطاحة بها وبنظامها واستبدالها بسلطة جديدة ونظام جديد.
ومن جهة أخرى يحمل مصطلح الثورة معنى الرفض منطلقا، والتغيير الجذري الشمولي هدفا، ولذلك فإنه يقترب من الإصلاح من حيث هما أسلوبان إراديان للتغيير.
فالإصلاح يعني رفض شيء والإبقاء على شيء آخر، فهو ترقيع وترميم لهيكل متصدع، بينما الثورة هدم من الأساس لإعادة البناء من جديد، ولذلك يلاحظ في جميع الثورات أنها تبدأ بالإصلاح ثم تنقلب ثورة عندما لا يحقق الإصلاح الهدف المنشود.

1- ينظر: حواس بري، شعر مفدي زكريا: دراسة وتقويم، ص53،38.
2- ينظر: http://www.djazairess.com/algeriatimes/1437

ومن هذا المبدأ انطلق مفدي زكريا في نظم بعض القصائد التي كانت إصلاحية بالدرجة الأولى تتضمن جميع الآراء والأصوات التي تنادي بتغيير الواقع الاجتماعي، السياسي والثقافي وكذا الديني، ثم سرعان ما اشتدت وتبلورت خاصة عند انضمام الشاعر إلى حزب نجم شمال إفريقيا بالمبدأ الثوري الوحيد على الساحة الجزائرية[1].

3- مفهوم الشعر الثوري:
لقد تعددت مفاهيم الثورة ومضامينها وأهدافها "فالثورة في الشعر ليست موضوعا بقدر ما هي موقف يقفه الشاعر من مختلف القضايا وطابع خاص يطبع به شعره، وإن كانت تلك القضايا في مجملها قضايا وطنية، لكن الغرض الذي يعبر فيه الشاعر عن ثوريته ليس دائما ما يسمى بغرض الشعر الوطني بل تظهر النزعة الثورية حتى في أغراض أخرى بعيدة في شكلها عن الوطنية"[2].
فالهدف من الشعر الثوري تحفيز النفوس وشحن الهمم والدفع بها من أجل التمرد على الأوضاع المختلفة التي تثقل كاهل الشعوب فتقف موقفا واحدا لمواجهتها.
وباعتبار الكلمة أقوى من السيف يقوم الشاعر بنظم تلك الكلمات وتوجيهها إلى عامة الناس قصد إحياء الروح الوطنية الموجودة في نفس كل فرد، ويكون ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة "ولعل الثورة الجزائرية خير مثال على ذلك، إذ لعبت الأغاني الشعبية والأناشيد الوطنية دورا كبيرا في تحميس الأبطال والجماهير الشعبية وتمجيد قادة وضباط وجنود جيش التحرير الوطني والرفع من شأنهم"[3].
فقد لعب الشعر الثوري دورا هاما في قيام الثورات في مختلف البلاد العربية من حيث تصوير الأحداث والتعليق عليها لتكون مصدرا حيّا وشاهدا لترسيخ الأحداث.

1- ينظر: يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا: دراسة فنية تحليلية، ص57،55.
2- المرجع نفسه، ص64.
3- مصطفى بيطام، الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي 1954-1962، 'دراسة موضوعية وفنية'، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص121.

4- مصادر ومظاهر الحس الثوري عند مفدي زكريا:

خلال عقد الثلاثينيات عرفت الجزائر توترات اجتماعية، سياسية واقتصادية تسببت في ظهور شبح المجاعة والفقر والبطالة، بعد أن حرم الشعب الجزائري من أراضيه وجرّد من أملاكه، فكثرت الهجرات إلى تونس والمغرب وفرنسا هروبا من ذلك الاستغلال البشع الذي قامت به فرنسا اتجاه أبناء الجزائر، غير أن المجتمع الجزائري لم كله من الفلاحين وإنما هناك فئة مثقفة تلقت تعليمها على يد مشايخ ونخب جزائرية وأخرى غربية في المدارس الفرنسية ثم واصلت دراستها في معاهد البلدان المجاورة كالزيتونة والقيروان والأزهر...وحتى في الحرمين الشريفين، ثم عادوا إلى الوطن الجزائر لينشروا مبادئ الإصلاح واليقظة القومية، فبدأت تظهر الأحزاب والجمعيات والجرائد والمظاهرات الرافضة للسياسية الاستعمارية، إذ كانت تقوم الأحزاب والجمعيات بمحاولة تحريك الشعب الجزائري وتوعيته بضرورة رفض الظروف القاسية وإمكانية تغييرها إلى الأحسن خاصة حزب نجم شمال إفريقيا الذي تبنّى الاتجاه الثوري الصّرف، فأخذت الاحتجاجات والاضطرابات تعمّ مدن الجزائر الواحدة تلو الأخرى كأحداث قسنطينة وسطيف وسيدي بلعباس مما جعل بعض الفرنسيين لا يصدق أن الجزائريين الراضخين والموالين لسلطتها أصبحوا يشكلون خطرا عليها، فقامت بقتل واعتقال النخب المحركة لهذه الاحتجاجات وإطلاق مشاريع لتهدئة الوسط الجزائري كمشروع فيوليت، غير أن هذا لم يرض طموح الجزائريين وتأكدوا أن وعود فرنسا تتحقق فقط على الورق، ومن هنا برزت الجبهة الشعبية التي علّق عليها الجزائريون آمالا كثيرة لتحقيق طموحاتهم[1].

وقد كان مفدي أحد محركي الحركة الشعبية إذ "حاول أن يجعل من الأقلام الجادة مجاهدة تعمل على تنوير العقول التي حجب الاستدمار عنها نور العلم وبيّن أن جهاد القلم لا يقل في قيمته عن دور البندقية والرصاصة، ولذا انحنى باللائمة على من اكتفى بالقول دون أن يعمل مجتهدا على تحرير وطنه"[2]

فمفدي تشرّب حب الوطن على يد مشايخه مما جعله يفتخر بوطنه ويدعو إلى التضحية في سبيله، وحاول أن يحرك الروح الوطنية في وسط الشباب الجزائري بالكلمة خاصة وأنه عانى من ظلمات السجون مرات عديدة "فنظم في الكثير من الأغراض عن حب الجزائر والتعلق الشديد بها والاستعداد للتضحية في سبيلها مغازلا إياها في صورة امرأة ملكت قلبه، فهام بــها

1- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية '1930-1945'، ج3، ص55،37.
2- حواس بري، شعر مفدي زكريا: دراسة وتقويم، ص41.

وأصبح لا يهمه إلاّ أمرها، فيسبغ عليها صفات الحسن والفتنة والجمال ويوغل في وصف نفسه المعذبة وما يلقاه من الألم والوجد في سبيل محبوبته، مستعملا الرمز والتمويه اتقاء اضطهاد المستعمر بحيث لا يصرح بتعلّقه بالجزائر أو بقضية وطنية مثل الحرية، وإنما يجسّمها في شكل أنثى يذكر اسما لها، فهو يسميها في مطلع القصيدة باسم أنثى لكن عندما تخفّ عنه حدّة التأوّه والتألّم يعلن عن هويتها بصورة

صريحة وكأنه يحس أن الشحنة الوطنية فيه لم يعبّر عنها جيدا بذلك الأسلوب الرمزي فيعدل عنه إلى التناول الصريح للقضية الوطنية فيقول": [1]

الحب ارّقني واليأس أضنـــاني والبين ضاعف آلامي وأحزاني
والروح في حب ليلاي استحال إلى دمع فأمطره شعري ووجداني
أساهر النجم والأكـوان هامدة تصغي أنيني بأشـواق وتحنان[2]

فليلى هي الجزائر وليست ليلى الأنثى في الأبيات السابقة، وفي قصيدة أخرى يكتب الشاعر في حديث ناعم عن سلمى واصفا ما يعانيه في حبها من آلام ودموع مستعجلا ابتسام الدهر وقرب الوصل وصفاء العيش قائلا:

رسول الهوى بلّغ سلامي إلـى سلمى وعاط حميّا ثغرها الباسم الألمى
وناج هواهـا علّ في الغيب رحـمة تدارك هذا القلب أن ينقضي همّـا
فكم بحث هذا القلب من لاعج الهوى وكم بين هذا الجسم مـن أضلع كلمى[3]

وسلمى هذه ليست إلاّ الجزائر فهو يصرّح في آخر القصيدة قائلا:

بلادي بلادي ما ألذّ الهوى وما أمرّ كـؤوس الحب ممتزجا سمّا
بلادي ألا عطـف عليّ بنظرة حنانيك ما هـذا السّلو ولا إثما
ومذ فتحت عينيّ المدامع أبصرت هواك فلا عار عليها ولا لوما[4]

فيصعب في البداية في هذا الشكل من الغزل السياسي أن نميز أيهما الأصل وأيهما يخدم الآخر فالعاطفتان متداخلتان، والشاعر متشبث بالمرأة والوطن في آن واحد لكن عند إمعان النظر نتبيّن أن عاطفة حب الوطن هي الأساس وتمثل محور الاهتمام، وذلك أن الشاعر لا يعلل حبه للوطن بتعلقه بالأنثى، وإنما يذكر أن العاطفة الوطنية هي التي أجّجت فيه نار الهيام والحب، وبالتالي فلولا حبه للوطن وهيامه به لما شعر بغرام الأنثى يمتلك قلبه.

1- يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا: دراسة فنية تحليلية، ص65.
2- نقلا عن: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
3- نقلا عن: المرجع نفسه، ص64،67.
4- نقلا عن: المرجع نفسه، ص67.

فعندما يبسط الليل أجنحته يهيج صدر الشاعر فيتذكر الأحبة وأيام الأنس فترفرف روحه منسابة خارج السجن لتحلق فوق ربوع الأحبة ثم تعود إلى الشاعر منهم بنجوى عطرة جعلت السجن كله يعبق عطرا:

ورب نجــوى كدنيا الحب دافئة قد نام عنها رقيبي ليس يسترق
عادت بها الروح من سلوى معطرة فالسجن من ذكر سلوى كله عبق
سلوى أناديك سلــوى مثلهم خطأ لو أنهم أنصفوا كان اسمك الرمق
يا فتنة الـروح هلاّ تذكرين فتى ما ضرّه السجن إلاّ أنه ومــق[1]

هذه النجوى تشغل الشاعر عن نفسه فينساق أليها بمناجاة من عنده، فيستعرض فيها الذكريات العذبة بكثير من التلذذ بعمق عذوبتها ما يلاقيه من غربة وعذاب في السجن فيقول:

سلوى حديثك يا سلوى يناغمني والطرف يختان لا يدري به الحدق
أنفاسك الطهر كالصهباء تغمرني دفئا ويسكرني من فرعك العرق
سمراء خدرها الباري وصورها إن أرتشف ثغرها يفتك بي الأرق[2]

وقد علق يحي الشيخ على ما كتب مفدي زكريا حيث "يعود الشاعر إلى وعيه فيتحسس ما حوله وينتصب أمامه شبح العذال يعنّفونه ويشبعونه لونا وتفريعا، فلا يجد له عذرا إلاّ أن يجيبهم بأن ما يغريه قي محبوبته تلك إنما هو جزائريتها، فهو لم يمجّد فيها إلاّ صفات الجزائر بل إنه لم يهو في تلك المحبوبة إلاّ طلعة الجزائر"[3] فيقول:

يا لائمي في هواها إنـها قبس مـن الجزائر والأمثال تنطبق
بنت الجزائر أهوى فيك طلعتها فكل ماضيك من أوصافها خلق[4]

فالشاعر في هذه الأبيات "يريد أن يقول أن محبوبته لم تكن إلاّ مرآة عاكسة لوجه الجزائر فلذلك أحبها وهام بها، وعندما أحبها تعلق بالوجه المنعكس عليها وبالتالي فالجزائر هي الهدف والأساس، وليس حب الأنثى إلاّ نتيجة للحب الأول الأساسي، فهو حتى عندما يحب المرأة يحبها لجزائريتها وفقط".[5]

1- مفدي زكريا، اللهب المقدس، دط، دار هومة للنشر والتوزيع، 2002، الجزائر، ص22،21.
2- المرجع نفسه، ص25.
3- يحي الشيخ صالخ، شعر الثورة عند مفدي زكريا: دراسة فنية تحليلية، ص67.
4- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص26.
5- يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا: دراسة فنية تحليلية، ص68.

كما نظم مفدي زكريا قصائد أخرى في غرض الرثاء تصب في صميم الشعر الوطني الثوري متناولا شهداء الجزائر الذين قضوا نحبهم في سبيل الوطن، فهم ليسوا كغيرهم من الناس، ومفدي يرثيهم علة أنهم خالدون لم يموتوا، فهو رثاء في ظاهره تحفيز وشحن للهمم في باطنه، إذ نجده مليئا بالحماسة والقوة لا يتناول الموت العادي وإنما موت الأبطال الذي تنبعث منه حياة الوطن، فليس في موتهم ما يوحي بالأسى أو الضعف بل فيه كل معاني البطولة والتحدي، لذلك لا يفتأ الشاعر فيتحدث عنهم كما يتحدث عن أبطال أحياء يغيّرون مجرى الأحداث، فأحمد زبانة الشهيد أعدمه المستعمر الذي يقف موقف القوة في الحادثة بدل موقف الضعف عند المحكوم عليهم بالإعدام، فمن يقرأ وصف مفدي زكريا يتبين له أن زبانا وهو يرسف في أغلاله متجها نحو المقصلة، يحمل من معاني القوة والانتصار ما لا يحمله جلادوه الذين نفذوا فيه حكم الإعدام، فالجلاد ملثم الوجه مخافة أن يعرف، وأحمد زبانا يطلب منه أن يسفر عن وجهه ويميط عنه اللثام لأنه لا يحقد عليه، فيقول مفدي زكريا على لسانه:

وامتثل سافرا محياك جلادي ولا تلتثم فلست حقودا[1]

ثم يصف زبانا وهو متجها نحو المقصلة قائلا:

شامخا أنفه جلالا وتيها رافعا رأسه ينادي الخلودا[2]

وفي قصيدة أخرى يذهب مفدي إلى "أن فناء الجسد ليس هو الموت، بل الموت الحقيقي هو عدم الثورة والرضوخ لمهانة والذل والميت هو من يرى شرف أمته يداس ولا يثور"[3] فيقول:

عمرك الله ليس ذلك بميت وإنما الميت من يعيش ذليلا

إنما الميت من يرى شر ف الأمة نهبا ولا يزال خمولا[4]

أما المدح فكان فيمن يضحي في سبيل شعبه فمدحه ما هو إلا اعتراف بالفضل وذكر للفعل الجميل، ولا يجحد الفضل إلا السفهاء وذووا النية السيئة، فهو لا يعبر عن عاطفته الخاصة ولا يتحدث باسمه وإنما باسم الجزائر وثورتها، خاصة عند اندلاع ثورة نوفمبر أين أصبح مفدي شاعرها الرسمي يتكلم بلسانها ويمثلها في المناسبات والمحافل الدولية، وفي هذا الإطار تناول المدح والتمجيد والثناء على الشخصيات العربية التي عرفت بمواقفها المشرفة اتجـــاه ثورة

1- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص10.
2- المصدر نفسه، ص09.
3- يحي الشيخ صالخ، شعر الثورة عند مفدي زكريا: دراسة فنية تحليلية، ص78.
4- نقلا عن: المرجع نفسه، ص78.

الجزائر، فطبيعة الجزائري الثائرة جعلته يملك العزيمة القوية ولا يكترث بالمخاطر مهما عظمت واشتدت قساوتها، مما يبرز ظاهرة التحدي عند الشعب الجزائري لكل طاغية يسعى إلى الإبقاء عليه أسيرا مكبلا، فالثائر الصامد لا شيء يستهويه سوى العيش في الجبال وفي معاقل الثورة. [1]

ومن هذا الباب يرى مفدي زكريا أن الثورة وحدها كفيلة بتحرير الجزائر لأن من دخل الجزائر عن طريق النار والسلاح لن يخرج منها إلا بنفس الوسيلة[2] فيقول:

وإذا الجزائر بالسلاح استعبدت فمصيرها بسلاحها يتقرر[3]

والحق أن مفدي عندما يؤمن بالقوة وسيلة للتحرر فهو لا ينكر دور الشعر ولا يلغيه كلية، لكنه ينكر الاقتصار عليه وإشهاره في جميع الجبهات، فالقوة هي الأساس والشعر الثوري هو الذي يواكبها ويؤمن بها، ويكون صدى لها وهذا ما فعله مفدي إذ يقول:

أنا ابن الجزائر من أمـة على دمها تصعد الرابية
على ذوب أكبادها ترتقي وفوق جماجمـها ماضية
غدوت لثورتها شاعـرا من النار والنور الحامية[4]

وبناء على دور السلاح الأساسي في الثورة فإن الشاعر لا يسمح بالكلام عندما ينطلق السلاح، إذ ينبغي على الكلام أن يلوذ بالصمت في حضرة هذا الأخير ويتركه وحده يفصح ببيانه قائلا:

نطق الرصاص فما يباح الكلام وجرى القصاص فما يتاح ملام[5]

وحسب مفدي فإن لغة القنابل فصيحة ولوافح النيران خير ما يرفع من اللوائح لمن في عينيه ركام، وروائح البارود أقوى العطور وأعبقها فهي مسك يشمه من شدّ الزكام منخريه، والحق عندما ينطق معه الرشاش، فإن الوجوه تعنوا لها والأصنام تخر صرعى، وبذلك فهو يقول:

لغة القنابل في البيان فصيحـة وضعت لمن في مسمعيه صمام
ولوافح النيران خير لوائـح رفعت لمن في ناظريه ركـام

1- ينظر: مصطفى بيطام، الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي 1954-1962، 'دراسة موضوعية وفنية'، ص80،73.
2- ينظر: يحي الشيخ صالخ، شعر الثورة عند مفدي زكريا: دراسة فنية تحليلية، ص91.
3- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص139.
4- المصدر نفسه، ص348.
5- المصدر نفسه، ص42.

وروائح البارورد مسك نوافح سجرت لمن في منخريه زكـام
والحق والرشاش إن نطقا معا عنت الوجوه وخرت الأصنـام[1]

إن إيمان الشعب الجزائري بالثورة والاقتناع أن ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة جعله يلتف حولها ويشدد علاقته بها والرغبة في طرد المستعمر وتحقيق الاستقلال، بالجهاد والتضحيات لا اعتمادا على المنظمات والمؤتمرات التي كان يعقدها الخونة، ومادامو كذلك لا ينتظر منهم خير للبشرية فالجزائر لا تنتظر منهم عدلا ولا إنصافا ولا تترك مصيرها يتقرر في المحاكم الدولية عن طريق المؤتمرات، وإنما ستقرره في محفل الموت بالدماء، ومن هذا المنطلق ينظم مفدي زكريا أبياتا معبرا فيها عن حقيقة المستعمر الغاشم قائلا:

لا نرتجي العدل من قوم سماسرة خير البرية منهم غير منتظـر
مصيرنا بالدم الغالي نـقرره في محفل الموت لا في عقد مؤتمر[2]

بالاضافة إلى إيمان الشعب بالثورة والجهاد في سبيل الوطن، هواء الجزائر الذي يستنشقه الجميع وماؤها وسماؤها التي تظلل الجميع وترابها الذي يعيش عليه أبناؤها جميعا يفرض عليهم وحدة الهدف والمصير، ويعبر مفدي عن هذا التلاحم والتضامن بقوله:

نحن في هذه الجزائر إخوا ن، جراحاتنا الثخينة حمـرا
لحمة الضاد والعروبة التا ريخ والدين، آي ربك كبرى
وهواها ماؤها وسمـاها وثراها الزكـي شبرا فشبرا[3]

فالشخصية العربية التمسك بالعقيدة الإسلامية كان من وسائل تحقيق النصر لما تحمله تلك العقيدة من مبادئ ثورية تدعوا إلى رفض العبودية لغير الله، ومقاومة الشرك والطغيان، وتحقيق العدالة والسلام،

ولما تعد به من خلود وثواب للذين يموتون في سبيل الحق واعتبار هؤلاء أحياء لا يموتون، لذلك كان من أهداف المستعمر القضاء على الروح الوطنية والتخلي عن شخصيته العربية مستعملا في ذلك أسلحة كثيرة، كسياسة الإدماج والتجنيس وغيرها، إلا أن الجزائري ظل متشبثا بجزائريته متمسكا بعروبته وإسلامه، مؤمنا بالثورة وتحقيق الانتصار على الطغيان ويعبر مفدي عن في قوله:[4]

1- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص42.
2- المصدر نفسه، ص142.
3- المصدر نفسه، ص283.
4- ينظر: يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا: دراسة فنية تحليلية، ص99.

واستضعفوه.. فقرّروا إذلالـهُ فأبـتْ كرامتُهُ لــه أن يخضعا
واستدرجوه.. فدبّروا إدماجَـهُ فأبـــتْ عروبتُه له أن يُبلَعا
وعن العقيدة.. زوّروا تحريفَهُ فأبى مع الإيمان.. أن يتزعزعـا[1]

وما يمكن استخلاصه في نهاية هذا الفصل، هو أن الأوضاع المزرية التي عاشها الشعب الجزائري كانت الملهم الأول والدافع الثاني في نمو الحس الثوري عند مفدي زكريا ومحاولته نشره في أوساط الجزائريين، بهدف التمرد وعصيان المستدمر المستعمر للشعوب.

1- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص59.

الفصل الثاني

- الرثاء عند القدماء:

مذ أن خلق الإنسان وهو يتهرب من الموت الذي لابد منه ويتذكره كلما سمع بوفاة شخص ما، ومهما كانت صفة ومكانه هذا الإنسان فإنه يتألم أمام الموت ويفتقد لمن مات ويعدد مزاياه باستعمال ما يسمى بغرض الرثاء.

والرثاء متصل بالحماسة لكثرة ما يقع في أيام العرب وحروبهم من قتل وثأر، فلما يسقط كبار الرجال في المعارك من الرؤساء والفرسان يتصدى لهم الشعراء بالرثاء، وهذا الأخير يجمع عادة بين صفات المديح والبكاء عليه ورد شماتة الأعداء بالأخذ بالثأر وصفات الميت في الرثاء هي نفسها صفات الحي في المديح، بعضها صفات جسدية وأخرى معنوية وخلقية، وهناك ضرب آخر إلى الندب والنواح كانت النساء ينظمنه للبكاء على الميت.[1]

فالرثاء نوع من التعبير عما يختلج النفس من الم وذلك بذكر خصال الذاهبين، وعادة ما يبدأ الشعراء بالتعبير عن الحسرة على ما ضاع في مقدمات مراثيهم أين يذكرون أحوال المرثي الذي أدركته المنية فيها، ثم يتناول الشاعر مديح المتوفي وأهله، فهذا امرؤ القيس يقول حينما مر بقبر عربية في بلاد الروم:

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب [2]

ولعل هذه الأبيات من أصدق ما قاله امرؤ القيس بسبب ما لقيه في بلاد الروم حينما ذهب إليهم طالبا المعونة على قتلة أبيه، أين قوبل بالرفض فحز هذا في نفسه وجعله يحن إلى أهل العروبة والسند وقت الشدة. [3]

ومن مشهور الرثاء في العصر الجاهلي كذلك رثاء المهلهل لأخيه كليب الذي هاجت بمقتله حرب البسوس:

كليب لا خير في الدنيا ومن فيها إن أنت خليتها فيمن يخليـــها
كليب أي فتـــى عز ومكرمة تحت الصفات التي يعلوك سافيها
نعى النعاة لي كليبا فقلت لهم سالت بنا الأرض أو زالت رواسيها[4]

1- ينظر: محمد زغلول سلام، مدخل إلى الشعر الجاهلي، دراسة في البيئة والشعر، منشأة المعارف، دط، الإسكندرية، مصر، ص165،164.
2- نقلا عن: سراج الدين محمد، الرثاء في الشعر العربي، دط، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، ص75.
3- ينظر: عبد الرحمن شكري، دراسات في الشعر العربي، تح: محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، مصر، 1994، ص157.
4- نقلا عن: سراج الدين محمد، الرثاء في الشعر العربي، ص07.

فمن شدة حب المهلهل لأخيه كليب وتقديره له صار يرى أن الدنيا لا معنى لها في غيابه فكليب كان قائدا وفارسا في نفس الوقت، وخسارة القائد الشجاع لها وقع كبير في نفس المقود، سواء كان الأهل أو القبيلة، فموت كليب ولّدت حربا ضروسا كان الهدف منها الأخذ بالثأر لموته والعصر الجاهلي معروف بحدة الكلمة التي كانت تأخذ مكان السيف في الكثير من الأحيان خاصة عندما يكون المراد منها تحميس النفوس وتهيئتها للمشاركة في الحروب.

أما من جيد الرثاء في عصر صدر الإسلام نجد قصائد الخنساء التي اشتهرت بهذا الغرض من كثرة ما قالت في شعر المراثي راثية أخاها صخرا، ومما قالت:

قذى بعينك أم بالعين حـــوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها دار
كأن دمعي لذكراه إذا خطـــرت فيض يسيل على الخدين مدرار
تبكي لصخر هي العبرى وقد ولهت ودونه من جديد الترب أستار

إلى قولها:

وإن صخرا لتأتـــم الهداة به كأنه علـــم في رأسه نـار[1]

وقولها في قصيدة أخرى:

يؤرقني التذكر حين أمســي فأصبح قد بليت بفرط نكسي
وعلى صخر وأي فتى كصخر ليوم كريهة وطعان حلس

غالى قولها:

وما يبكون مثل أخي ولكـن أعزي النفس عنـه بالتآسي
فلا والله لا أنســـاك حتى أفارق مهجتي ويشق رمسي[2]

فصخر بالنسبة للخنساء كل شيء في دنياها وكلما بكت عليه تحس أن ذلك البكاء مازال لم يشف غليلها بعد إلى درجة أنها كانت ترى في الموت وحده وفقط يمكنها من محو ذكراه، فالشهيد معروف أن مقامه الجنة إلا أن الخنساء كانت تفضل حياته بدل موته رغم أنه استشهد في إحدى المعارك الدامية التي كانت تدور رحاها بين المسلمين والكفار وصارت ترثيه في كل مرة تذكّرته عساه ذلك يخفف آلامها.

1- ديوان الخنساء، تح: عبد السلام الحوفي، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006، ص38.
2- المصدر نفسه، ص62،40.

أما في العصر العباسي فكان أكثر الرثاء وأغزره ما تعلق برثاء الملوك والمقربين منه سواء كان القصد منه التقرب إلى الملوك والتكسب منهم أو حبا فيهم وتأثرهم بفقدانهم، غير أن هذا لم يمنعهم من رثاء الثوار العظام الذين استشهدوا في الفتوحات الإسلامية وأسسوا لدولة إسلامية من المحيط إلى الخليج، فهذا ابن الرومي يرثي أبا الحسين يحي بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين السبط ثائر خرج أيام المتوكل العباسي فحبسه ثم أطلق صراحه، ولما خرج أيام المستعين قتل بعد سقوطه عن فرسه قائلا بنفس جريحة مملوءة بالمآسي والمشاعر المرهفة:[1]

ويقتضي إمام الحق فيكم قضائه تماما وما كل الحوامل تخدج
وتظعن خوف السبي بعد إقامـة ظعائن لم يضرب عليهن هودج
وقد كان في يحي مذ مرّ خطـة وناتجهـا لو كان للأمر منتج
هنالكم يشفى تبيّع جهلكـــم إذا ظلت الأعنـاق بالسيف تودج

الى قوله:

مه لا تعادوا غرّة البغي بينكم كم يتعادى شعلة النـــار عرفج
أفي الحق أن يمشوا خصاما وأنتم يكـــاد أخوكم فطنة يتبعّج؟[2]

فالفارس المقدام يصعب تقبل مماته على كل الناس، فما بالك بشاعر يحس بأن كل أيامه مآس بعد أن ذاق مرارة فقدانه لأبنائه وأقربائه مما يجعل مرثياته تتميز بقوة الحرارة وصدق العاطفة فكم من ثائر مات على حين غرة مثل أبا الحسين إثناء الفتوحات الإسلامية التي شهدت ما لا يحصى من الأبطال الأفذاذ.

أما أبو تمام فيقول راثيا الشهيد البطل محمد بن حميد:

محمد بن حميد أخلقت رممه أريق ماء المعالي إذا أريق دمه
تنبهت لبني نبهان يوم ثوى يـــد الزمان فعاثت فيهم وفمه
رأيته بنجاد السيف محتذيا كالبدر حـــين جلت عنه ظلمه

في روضة قد علا حافاتها زهر علمت بعد انتباهي أنها نعمه[3]

1- ينظر: ديوان ابن الرومي، ج1، ط1،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002، ص305.
2- المصدر نفسه، ص306،305.
3- شاهين عطية، شرح ديوان أبي تمام، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003، ص375.

فأبو تمام يرى أن إراقة دم محمد بن حميد كإراقة دم أصحاب السعادة والسمو والمعالي تماما، ومقامه في النهاية روض من رياض الجنة التي هي نعمة من نعم الله.
ويقول راثيا جعفر الطائي قائلا:

رحم الله جعفرا فلقد كا ن أبيّا وكان شهما رحيما
مثل الموت بين عينيه والذ ل فكلاّ رآه خطبا عظيما
ثم سارت به الحمية قدما فأمات العدى ومات كريما[1]

ولعل الرثاء في هذه الحالة أحد المصادر الحماسية التي تبعث في النفس روح الانتقام من العدو لصالح اهل المقتول.
ويقول المتنبي في مرثية لمحمد بن إسحاق التنوخي:

إني لأعلم واللبيب خبير أن الحياة وإن حرصت غرور
ورأيت كلا ما يعلل نفسه بتعلّة وإلى الفناء يصير
أمجاور الديماس رغم قرارة فيه الضياء بوجهه والنور
ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى أن الكواكب في التراب تغور[2]

فموت محمد بن إسحاق شبهه المتنبي بالكوكب الذي يغور في الأرض مستنتجا منه أن الفناء مآل كل إنسان وما الحياة إلا غرورا له مهما طال عمره.
وقد ظهر في العصر الأندلسي نوع جديد من الرثاء ألا وهو رثاء المدن الذي اشتهرت به الأندلس بعد سقوط مدنها الواحدة تلو الأخرى، فما كان بيد الشعراء من سلطة سوى سلطة القلم ألما على سقوط مدن بلادهم تباعا في يد الاسبان، وبذلك خلّد الشعراء سقوط هذه المدن وعبّروا عن ذلك بالدموع والاستنجاد، غير أن معظمهم وقف موقفا سلبيا غلب عليه اليأس والبكاء على القصور والتفجع من آثار الديار، إضافة إلى رثاء الأقارب، الأصدقاء والملوك، ومن هذا الأخير قول ابن زيدون في الملك المعتضد المغدور به:

ألم تر أن الشمس قد ضمها القبر وان قد كفانا فقدنا القمر، البدر
وأن الحيا إن كان أقلع صوبه فقد فاض للآمال في إثره البحر
إساءة دهر أحسن الفعل بعدها وذنب زمان جاء يتبعه العذر

1- شاهين عطية، شرح ديوان أبي تمام، ص376.
2- ديوان المتنبي، دار الجيل، دط، 2005، ص71.

فلا يتهنّ الكاشحون فما دجا لنا الليل إلا ريثما طلع الفجر[1]

فموت المعتضد مغدورا لم يثن من عزيمة ابنه المعتمد وأهل إمارته بل كان سببا في التسلح بالشجاعة والقوة للدفاع عن الإمارة والمحافظة عليها من بطش المغتصب الاسباني.
ويقول ابن سهل الأندلسي يرثي من كنيته أبو الحجاج من بني فاخر:

ترحّل لما تكامل مجده وليس كسوف البدر إلا إذا تمّا
لقد عاش رغما للحواسد والعدى ومات على أنف الندى والهدى رغما
وكانت ليالي العيش بيضا بقربه فقد أصبحت أيامنا بعده دهما

وقد كان يعطي السيف في الروع حقه ويرضى إذا أرواه في الشرك أن يظما
ويضحك ثغر النصر في كل معرك يرى وسطه وجه الردى عابسا جهما
وكـــان إذا الأمجاد ظنوا نوالهم لمستمنح غرمـــا، رأى بذله غنْما

إلى قوله:

بني فاخـــــر أمسيتم يوم فقده كأنجم أفـــق فارقت بدرها التمّا
ذهبت أبا الحجـــاج لم تبق ذلة وأبقيت فينا المجد والسـؤدد الضخما[2]

فالفارس أبا الحجاج دافع بسيفه وذاد عن وطنه وقام بواجبه في نظر ابن سهل، ومفارقته الحياة في سبيل الله ذخر له ولأهله ومجد لوطنه الذي سيبقى شامخا من بعده، والشهيد في سبيل الله والوطن يلهم كل شاعر غيور على وطنه وأهله.

ويقول ابن هاني الأندلسي راثيا القائد جوهرا عند إخراجه في موكب جنائزي على يد الجيش من القيروان إلى مصر:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع وقد راعني يوم من الحشر أروع
غـــداة كأن الأفق سدّ بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ سلمت كيـــف أشيّع ولم أدر إذا شيّعـــت أودع
وكيف أخوض الجيش والجيش لُجّه وإني بمن قـــاده الدهر مولع

إلى قوله:

تســـير الجبال الجامدات بسيره وتسجد ومن أدنى الحفيف وتركع[3]

1- ديوان ابن زيدون، تح: كرم البستاني، دط، دار صادر، بيروت، لبنان، ص183.
2- ديوان ابن سهل الأندلسي، تقديم إحسان عباس، دط، دار صادر، بيروت، لبنان، ص191،190.
3- ديوان ابن هاني الأندلسي، دط، دار صادر، بيروت، لبنان، ص191،190.

2- الرثاء عند المحدثين:

لقد كانت حروب المسلمين ضد الكفار أثناء الفتوحات الإسلامية تعتمد على السيف والرمح فقط، وبهذه الوسائل البسيطة تمكنوا من فتح أكثر من بلد ونشروا تعاليم الإسلام السمحاء بعون الله تعالى، بعد أن كانوا مخلصين لله والدين والوطن، غير أنهم لم يواصلوا على ذلك المنهاج بل تفرغوا لدنياهم ونسوا آخرتهم، مما انعكس عليهم سلبيا فضيّعوا مجدهم ومهدوا لغيرهم كي يتطور ويتقهقروا هم ويعودوا إلى الوراء، فكان ذلك فعلا وانغمسوا في الجهل والأمية وصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين لهم هيبتهم وكلمتهم، وانتهزت الدول المستفيدة منهم الفرصة وهيّأت نفسها لاستعمارهم واستغلال خيراتهم والانتفاع بها بعد أن فرّطوا فيها، فحاولوا استعادتها من جديد متبعين كل الطرق المتاحة للوقوف في وجه المستعمر الذي لا يرحم، مستعملين السيف والبندقية والقلم والعلم...إلخ، ومن هذا المنطلق ظهر مفهوم الثورة والتمرد على الأوضاع الاستعمارية بانتهاج مبدأ الاستقلال أو الشهادة، فهذا شوقي أحمد يقول راثيا دمشق بعد أن تعرضت للقصف من قبل الفرنسيين بالمدافع في حفلة أقيمت لإعانة منكوبيها:[1]

سلام من صبى (بردى) أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقـوافي جلال الرزء من وصف يدق
وذكرى عن خواطرها لقلبي إليك تلفّت أبـــدا وخفق
وبي مما رمتك به الليـالي جراحـات في القلب عمق

إلى قوله:

صلاح الدين تاجك لم يجمـّل ولم يوسم بأزين منه فـرق
كل حضارة في الأرض طالت لها من سرحك العلوي عـرق
سماؤك من حلى الماضي كتاب وأرضك من حلى التاريخ رق
بنيت الـــدولة الكبرى وملكا غبار حضـــارتيه لا يشق

له بالشام أعلام وعـــرس بشائره بأندلـــس تدق [2]

فحب شوقي لوطنه لا يختلف فيه اثنان، وقد خلّد حبه لها بقصائده الطوال، فكان المنفى ثمنا لحبه إلا أن عيشه بالمنفى زاد من حبه للوطن، فصار مخلصا ومدافعا عنه، وهذا من أحـد أسباب

1- ينظر: أحمد شوقي، الشوقيات، مج1، تح: علي عبد المنعم عبد الحميد، ط1، دار نوبار للطباعة، القاهرة، مصر، 2000، ص280.
2- المصدر نفسه، ص280،281.

دفاعه عن مبدأ القومية العربية، فراح يصب شعره رحيقا مذابا مكن عصارة ذاته ممجدا لمدينة دمشق الحضارة والتاريخ، وكل من أراد محو مبانيها وتهديمها وقتل شعبها فإن صلاح الدين تاريخها ومرجعها لن يمحوه استعمار مدمر يفقه فقط لغة القوة والسلاح لإبادة أهل دمشق.[1]

ويقول راثيا الزعيم البطل سعد زغلول باكيا إياه بدموع كأنها جمرات تكوي خديه:

شيّعوا الشمس ومالوا بضحاها انحنى الشرق عليها فبكـاها
جلل الصبح سودا يومـــها فكأن الأرض لم تخلع دجاها
أنظروا تلقـــوا عليها شفقاً من جراحاتِ الضحايا ودِماها [2]

فهو يبكي البطل سعد زغلول وما ألم به، وشبهه بالشمس التي تغرب ولن تشرق من جديد فيخيم الحزن والسواد على الأرض كلها بسبب وفاة هذا القائد العظيم الذي كان أمل العرب والمصريين على وجه الخصوص لأنه كافح من أجل استرداد حرية وطنه المسلوبة.

ويقول شوقي في قصيدة أخرى عن عمر المختار شهيد المسلمين والعرب بطل طرابلس الخالد، الذي ظل يقاتل الايطاليين في سبيل الذود عن وطنه وقومه حتى قبضوا عليه وأعدموه شنقا، بعد أن سلكوا في إعدامه سبلا متوحشة ولم يرحموا سنه إلى فاق التسعين عاما.[3]

ركزوا رفاتك في الرمال لواء يستنهض الوادي صباح مساء

إلى قوله:

خيّرت فاخترت المبيت على الطوى لـم تبن جاها أو تلم ثراء
إن البطولة أن تمـوت من الظما ليس البطولة أن تعب الماء

وقوله كذلك:

لبّى قضاء الأرض أمس بمهجة لم تخش إلا للسماء قضـــاء
وفاه مرفـــوع الجبين كأنه سقراط جرّ إلى القضـــاء رداء
شيخ تمالك نفسه لـــم ينفجر كالطفل من خوف العقاب بـكاء

1- ينظر: منير سلطان، البديع في شعر شوقي، دط، منشأة المعارف، مصر، ص274.
2- أحمد شوقي، الشوقيات، مج1، تح: علي عبد المنعم عبد الحميد، ط1، دار نوبار للطباعة، القاهرة، مصر، 2000، ص66.
3- ينظر: أحمد شوقي، الشوقيات، مج2، تح: علي عبد المنعم عبد الحميد، ط1، دار نوبار للطباعة، القاهرة، مصر، 2000، ص698.

وأخو أمور عاش في سرائها فتغيرت فتوقـــع الضـراء
الأسد تزار في الحديد ولن ترى في السجن ضرغاما بكى استخذاء
وأتى الأسير يجر ثـقل حديده أســـد يجرر حية رقطاء
عضت بساقيه القيـود فلم ينؤ ومشـــت بهيكله السنون فناء[1]

لقد ركز الايطاليون جثة عمر المختار في الرمال وكأنها لواء يقطر بالدم الطاهر، وفي ذلك نوع من استثارة عزيمة الليبيين للانتقام من الطليان، لأن الظلم يولّد الإحساس برد الاعتبار والثأر يوما ما، وهو جرح في الصميم يدفع الشعب إلى المطالبة بالحرية التي لا تتحقق إلا بالتضحيات والمقاومة ثم يخاطب عمر المختار بأنه سوف يبقى سيفا مسلولا يحمسهم ويملأ سيوفهم مضاء وعزيمة.

أما الشاعر علي محمود طه فيقول راثيا جثتي البطلين حجاج ودوس من سلاح الجو المصري مستقبلا إياهما في المطار بعد أن احترقت بهما طائرتهما في سماء فرنسا وهما في طريقهما إلى الوطن:[2]

أدنا المزار وقــرت العينان وفرغتما من لهفة وحنان
وهززتما بالشوق كـف مسلم وهفت إلـى تقبيله الشفتان
وحلا العناق على اللقاء وأومأت لكما الديار، فرفرف القلبان

إلى قوله:

مثلتما في المــوت وحدة أمة ذاقت من التفريق كل هوان
مسح الهلال دم الصليب وضمدت جرج الأهلة راحة الصلبان
إن كان في ساح الـردى لكليكما مثل ففي ساح الفدى مثلان[3]

ففي نظر علي محمد طه استشهد هذين البطلين في سبيل الله والوطن، وهما مثلان يقتدى بهما وعبرة لمن خلفهم في التضحية وتقديس الوطن والذود عنه عند الحاجة، فلولا تلك التضحيات الجسام لما خرج الصليبيون من بلادهم، ولولا إيمانهم بأن حب الوطن يأتي بعد حب الله سبحانه وتعالى لما فضلوا الموت بدل الحياة.

1- أحمد شوقي، الشوقيات، مج2، ص699،700.
2- ينظر: محمد نبيل طريفي، شرح ديوان علي محمود طه، دار الفكر العربي، ط1، بيروت، لبنان، 2001، ص42.
3- المرجع نفسه، ص42،44.

أما الثورة الجزائرية فقد كانت ملهمة لكل الشعراء من الوطن العربي كله، بعد أن قدمت أكبر عدد من الشعراء ضحوا بالغالي والنفيس من أجل تحرير وطنهم الجزائر، ومن بين الذين تطرقوا إلى شهداء الجزائر محمد العيد آل خليفة في قصيدته المشهورة 'وقفة على قبور الشهداء' ومما جاء فيها:

شهداء التمدين في كل عصـر سرج الأرض بل نجوم السماء
لم أجد في الرجال أعلى وساما من شهيـد مخضب بالدماء
إن ذكرى الشهيد أرفع من أن ترفعوها بالصخـرة الصماء
فأقيمـــوا لهم تماثيل عز في قلــوب ثورية الأهواء[1]

فهذه الأبيات تكشف أن محمد العيد يريد أن تقام التماثيل للشهداء في القلوب والعقول اعترافا بفضلهم على هذا الوطن، وليس فوق الصخور والصور فقط حتى تجعل من الجيل الناشئ يكِنّ لهم المزيد من الاحترام والتبجيل.

3- الحس الثوري في شعر مفدي زكريا:

لو صح أن يعرف مفدي زكريا بقول موجز لعرف بالثورة، ولذلك لم يخطئ من وصفه بشاعر الثورة إذ سخّر شعره للثورة المظفرة تأريخا وتأصيلا وعاطفة ومبدأ ودعوة.

فقد امتزج الشاعر بالثورة امتزاجا كليا، فسرت نيرانها إلى أحشائه قبل أن تسيل من قلمه، ومن يتصفح إنتاجه الأدبي والشعري يدرك أن الرجل كان ثوريا بأتم معنى الكلمة، ولعل هذا مرده إلى بشاعة الاستعمار وهمجيته وتنكيله الفظيع بالجزائريين ذكورا وإناثا، كبارا وصغارا، وحتى الشاعر لقي من جحيم التعذيب ما لا يوصف، فعندما ننظر إلى عناوين بعض قصائده نجدها ذات ملمح يغلب عليه الحس الثوري ومثال ذلك: الذبيح الصاعد، زنزانة العذاب، حروفها الحمراء أنا ثائر، وتكلم الرشاش جل جلاله،

المارد الأسمر، إلى اللذين تمردوا، أذكروا الثورة في أقسامكم، سنثأر للشعب يوم الخلاص...إلخ، كل هذه العناوين وغيرها مثيرة ثائرة ثورية.
فمن يتصفح ديوان اللهب المقدس يستدعي انتباهه منذ الوهلة الأولى العنوان، فهو عنوان معبّر فبقدر ما فيه من ثورية واندفاع يعبر عن الأنفة والعزة والشموخ.

1- نقلا عن: أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة ودراسات في الأدب الجزائري الحديث وتجارب في الأدب والرحلة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص50.

إن ثورة الجزائر لهب مشتعل ورصاص منطلق وحماء محرقة، وأهات وزفرات، وتنكيل وتعذيب وسجون ومعتقلات وضحايا ومعطوبون، إنه اللهب المقدس وما يحمله من قدر للحس الثوري لدى مفدي زكريا، ثورة من أجل السلم والأمان والعدالة والتنمية والحفاظ على الهوية والثوابت.

أ- رثاء المجاهد الشهيد:

نلمس الحس الثوري بقوة في الاتجاه الثوري الذي فجّر بطولات ذات قوة وعزيمة في محاربة الاستعمار والتصدي له، وقد رثى مفدي زكريا من هو أحق بالرثاء، وهذه شهادة منه على الحق وعلى حامليه، وقد سقطوا شهداء من أجل شيء قدّسه الإسلام وأجلّ الله حامليه ألا وهو الجهاد.
فقصيدة الذبيح الصاعد التي تعد من بين القصائد التي نلمس من خلال ألفاظها وعباراتها الحس الثوري، كيف لا وهي تخلد شهيدا فقد الإحساس بالآلام الجسدية أثناء المقاومة للعدو، فهذه بطولات عظيمة متشامخة تطل على هذه المظاهر المأساوية ولفتة ساخرة، وهناك بعض المواقف التي تجعل قلم الشاعر يتحرك إلى الكتابة من تلقاء نفسه "فيؤلف قصيدة رائعة تصور ذلك المشهد فهاهو –مفدي زكري- يستمد شاعريته من الثورة ويضفي أبعادا جديدة في علاقة الشعر بالثورة، فألف قصيدته 'الذبيح الصاعد' داخل سجن بربروس 1955م التي كانت تحكي قصة اول شهيد سقط في ساحة المعركة وهو المرحوم –أحمد زبانا- الذي استقبل حكم الإعدام بشموخ وثقة بالنصر"[1] فيقول في مطلعها:

قام يختال كالمسيح وئيـــدا يتهادى نشوان، يتلو النشـــيدا
باسم الثغر كالملائك، أو كالط فل يستقبل الصباح الجـــديدا
شامخا أنفه جـــلالا وتيها رافعا رأسه يناجي الخلـــودا

إلى قوله:

أشنقوني، فلست أخشى حبالا واصلبوني، فلست أخشى حديدا

1- عبد الجاسم الساعدي، الشعر الثوري الجزائري بين حركة الإصلاح والثورة، دط، سلسلة الدراسات، الجزائر، 2002، ص 156،157.

وامتثل سافرا محياك جـــلاّ دي، ولا تلتثم فلست حقـــودا
واقض يا موت فيما أنت قاضي أنا راض، إن عاش شعبي سعيدا
أنا إن مت فالجـــزائر تحيا حـــــرّة، مستقلة، لن تبيدا[1]

فالشهيد –أحمد زبانا- إذا الذبيح الذي فضل الموت على خيانة وطنه فصار نموذجا يحتذى به ومثلا يضرب في الصبر والقوة، فلا يمكن للقلم أن يصف كل هذه المشاهد بدقة، أي أنه عاجز عن ذلك كون المشهد مرعبا، لكن –مفدي زكريا- حاول أن يبين قليلا منه مادام قد عايش هذا الموقف، فمن يقرأ تلك

القصيدة بعمق يستخلص أن الذبيح الصاعد احتضنته السماوات وعانقه –جبريل- بجناحيه، فيذهب برأيه هذا إلى أن المسيح عيسى ليس الوحيد في الصاعدين الخالدين بل الشهداء أيضا.[2]

وعندما ينهي الشاعر من ذكر هذا الحدث الأليم يلجأ إلى تجسيد تجربة بطولية ذاتية، أي أنه لم يكن فيها عنصرا مشاهدا وإنما عاشها هو بحد ذاته في سجن بربروس الذي تلقى فيه شتى أنواع التعذيب من سوط لاهب، أسلاك مكهربة، تيار صاعق وحوض خانق...إلخ، فكل هذه الوسائل كان يتلقاها أيضا الشعب الجزائري بأكمله وبالرغم من ذلك حاول الشاعر أن يرفع من معنوياته ومعنويات أبناء شعبه بواسطة قلمه الذي كان الوسيلة الوحيد التي تساعده في الخروج من هذه المحنة، كما تساعده أيضا في إخراج مرارة العذاب والقهر والآلام التي تختلج في خواطره فمجرد التفكير في أنه سيأتي يوم وتنتهي هذه المآسي ينسيه كل هذه الأحزان، ولننظر كيف عبّر في القصيدة نفسها على صبره على المكاره بعد أن جسّد شتى أنواع التعذيب فيقول:

يا سجن، ما أنت؟ لا أخشاك، تعرفني من يحذق البحر، لا يحدق به الغرق
إني بلوتك في ضيق، وفـــي سعة وذقت كأسك لا حقـــد ولا حنق
أنام ملء عيـــوني، غبطة ورضى على صياصيك، لا هم ولا قـلق
طوع الكرى وأناشيـــدي تهدهدني وظلمة الليل، تغريني فأنطـــلق
والروح تهزأ بالسجـــان ساخرة هيهات يدركها، أيان تنـــزلق
تنساب في ملكوت الله ســـابحة لا الفجر، إن لاح، يفشيها ولا الغسق[3]

فالشاعر في هذه الأبيات تجاوز المحنة في شعره رغم أنه لم يتجاوزها في واقعه، وحسه الثوري يبعث في نفس المتلقي الإحساس بالسجن ويصوّر ساحة الإعدام تصويرا دقيقا.

1- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص10،9.
2- ينظر: صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص16.
3- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص21.

ب- رثاء المجاهدة الشهيدة:

كما بان الحس الثوري في شعره على المرأة الجزائرية الشجاعة، التي تعتبر عاملا من عوامل قيام الثورة، وما تعرضت له في ظل السيطرة الاستعمارية من ظلم وتعسف وقهر، إضافة الى قتل وذبح وانتهاك للحرمات، وهو وا ذهب اليه مفدي زكريا في قصيدته 'لغة الكلام' التي تحدث فيها عن جرائم المحتلين إزاء المرأة الجزائرية.

لا الذاريات، الماحقات، هواطلا لا الشامخات، تدكـها (الألغام)
لا القاصرات، الغافلات، كواعبا ديست قداستها وفضّ خـــتام
لا الحاملات، بطـونها مبقورة ذبحت أجنّتها، وفك حـــزام
لا، والمراضع عوّضت أثداؤها بفم المسدّس، والرصاص فطـام
والأم يهتك عرضها، وفحولها (حول الفضيحة) شاخصون قيام
يا للفظاعة من وحوش جوّع تسمو علـــى أخلاقها الأنعام[1]

فالمرأة كانت تقوم بأدوار بطولية ظلت خالدة من أجل تحرير البلاد فرفعت صوتها في وجه أعداء الوطن، إذ نجد منها الفدائية التي تنفذ عمليات يصعب على الرجل تنفيذها، ونجد منها المجاهدة في صفوف القتال في أعلي الجبال، كما كانت منها الممرضة التي تهتم بالجرحى، ولنقرأ هذه الأبيات التي قالها مفدي على لسان مناضليه في قصيدته 'بنت الجزائر':

أنا بنت الجـزائر أنا بنت العرب
يوم نادى المنـادي ودعل للكفاح
قمت، أحمي بلادي وتركت المزاح
قصدت جهـادي وغدوت الجناح
أنبري للأعـادي وأداوي الجراح

أنا بنت الجـزائر أنا بنت العرب
في صفوف القتـال أنا ألهـب نارا
من أعلي الجبــال أنا أدعو البدارا
في معاني النضـال أنا كنت المنارا[2]

فالأبيات تبيّن انعكاس الثورة وصداها المؤثر على المرأة الجزائرية حتى استجابت لهذا العمل فاتخذت موقعها النضالي إلى جانب الثـوار، وتجلت استجابتها هذه في قـدرتها على العمل

1- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص45،46.
2- المصدر نفسه، ص93،94.

والتضحية والإقدام والشجاعة، فيمكن أن نقول أن المرأة تمثل في تلك الفترة وعيا جديدا أنضجته سنوات القهر والظلم والحرمان.[1]

فالمرأة في الثورة ليست أمّا فقط، بل هي البنت الثائرة والمجاهدة في جيش التحرير، تعمل من أجل الجزائر التي أضحت أهم ما تملك، وكان مفدي ناقلا لهذه الشجاعة والاحساس بعظمة الثورة عند نساء الجزائر، فقال في قصيدته 'فلا عز...حتى تستقل الجزائر':

بلادي، يمينا بالذي شـــرع الفدا وبالجيش، في الساحات يسترخص العمرا
(وبالخمسة الأحرار) يخطف في السما ويحجزهم في السجن، جلاّدهـم أسرى
وحق (الجميــلات الثلاث) وبالتي أجابت، فراحت للفدا، تهجــر الحدرا
سنثأر حتى يعلم الكـــون أننا أردنا فـــأرغمنا بإصرارنا الدهرا[2]

استطاع مفدي زكريا وبكل وضوح أن يبين عظمة المرأة الجزائرية من خلال كلماته التي تنبع بالحس الثوري والوطنية، وعزم، وعزم على الاستقلال ليطل فجر جديد لجزائر حرة مستقلة.

ونجد أيضا أبيات أخرى لرثاء المجاهدة التي تشارك في المعارك مشاركة فعّالة، حيث تقوم بعلاج الجرحى وتواسي المرضى وتوفر كل ما باستطاعتها من طعام للمجاهدين والدفاع عن وطنها الجزائر، فتقاوم في الميدان بقوة وعزم إلى جانب أخيها المجاهد، ويقول الشاعر فيها:

شاركت في الجـهاد آدم حوا ء، ومـدت معاصمها وزنودا
أعملت في الجراح أنملها اللّد ن، وفي الحرب غصنها الألمودا[3]

فالجيش الجزائري يتكون من المجاهدين والمجاهدات عكس جيش المحتل الذي يتكون فقط من فئة الرجال الذي يتلقى الأوامر من الحكام لإشباع غريزة شاذة ألا وهي الإجرام.

ج- هاجس الحرية والتحرر:

كما تضمن شعر مفدي زكريا التنديد بسياسة الإدماج والفرنسة اللذين كانت تعمل عليهما فرنسا، فقد بذلت جهدا كبيرا للتغرير بالعلماء عن طريق التضليل والتغليط واستغلال حسن النيات، فردّ الشاعر على تلك المزاعم قائلا[4]:

فلسنا نرضى الاندماجا ولسنا نرضى التجنيسا

1- ينظر:عبد الجاسم الساعدي، الشعر الثوري الجزائري بين حركة الإصلاح والثورة، ص 190،191.
2- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص318.
3- المصدر نفسه، ص15.
4- ينظر: حواس بري، شعر مفدي زكريا: دراسة وتقويم، ص36.

ولسنا نرضى الامتزاجا ولا نرتـدّ فرنسيسا
رضينا بالاسلام تاجـا كفى الجهّال تدنيســا
فكل من يبغي اعوجاجا رجمنـــاه كإبليسا[1]

فالشعب الجزائري يرفض الادماج والتجنيس ولا يريد أن يكون فرنسيا.

كما اعتز الشاعر لما حققه الأجداد من انتصارات، ومن هذا المنطلق يرفض الحياة في ظل العبودية ويحفّز قومه بإثارة النخوة العربية ليمضوا نحو العلا، فالرغبة في الثورة وذم حياة المستعمر الغاشم وحياة العبودية، وفي هذا يقول:

نحن قوم جدودنا ملكوا الدنيا فهيهات أن نعيش عبيدا
صيد في الدماء من نخوة المل ك ينادي بنا العلا والصعودا[2]

فمن خلال هذه الأبيات الرغبة في الحرية والتحرر ظاهرة وقوية في عزم الشعب على الثورة والجهاد كبير والإيمان بالنصر أكبر.

كذلك نجد الحديث بقوة كبيرة عن الانتصار في النشيد الوطني الذي نظمه مفدي زكريا في قوله:

قسما بالنازلات الماحقات والدماء الزاكيات الطاهرات
والبنود اللاّمعات الخافقات في الجبال الشامخات الشاهقات
نحن ثرنا فحية أو ممات وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا[3]

ففي هذا المقطع يفاجئنا الشاعر بقسم غريب ومثير، قسم بالقنابل النازلة والدماء الطاهرة على أن الجزائريين ثاروا يطلبون الموت في سبيل الوطن أو الحياة في ظل الحرية والاستقلال.

ويقول في مقطع آخر:

نحن جند في سبيل الحق ثرنا والى استقلالنا بالحرب قمنا
لم يكن يصغى لنا لما نطقنا فاتخذنا رنة البارود وزنا
وعزفنا نغمة الرشاش لحنا وعقدنا العزم أن حيا الجزائر
فاشهدوا[4]

1- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص105.
2- نقلا عن: حواس بري، شعر مفدي زكريا: دراسة وتقويم، ص64.
3- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص71.
4- المصدر نفسه،س، ص72.

وفي هذا المقطع يبين مفدي زكريا أسباب اندلاع الثورة وهدفها الأساسي ألا وهو استقلال الجزائر وعن وسيلتها لبلوغ ذلك الهدف وهو الثورة واندلاع المعارك مع المستعمر.

د- الانتقال من زمن العتاب إلى زمن الجهاد:

إن المستعمر الغاشم حاول بطرق عديدة التلاعب بحقوق ومصير الجزائريين، فكانت وعودهم حبرا على ورق، وهذا هو تصرف العدو الخائن الذي يرغب في الاستيلاء على ارض الشعب الجزائري، لكن قوة الجزائريين وإيمانهم الكبير بالجهاد لن يقبل بمثل هذه الوعود الكاذبة فاستبسلوا للدفاع عن الوطن لأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلاّ بالقوة، ويخاطب مفدي زكريا فرنسا في هذين البيتين قائلا:

يا فرنسا كفى خداعا فإنا يا فرنسا قد مللنا الوعودا
صرخ الشعب منذرا فتصا ممت وأبديت جفوة وصدودا[1]

فقوة الشعب الجزائري وتوقه للحرية جعله ينهض من صمته غير منتظر فرنسا لتحقيق وعودها، ونهض للدفاع عن وطنه الجزائر.

كذلك له أبيات ضمن النشيد الوطني فيقول في هذا المقطع:

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب فاستعدي وخذي منا الجواب
يا فرنسا إن ذا يوم الحساب فاستعدي وخذي منا الجواب
إن في ثورتنا فصل الخطاب وعقدنا العزم أن حيا الجزائر
فاشهدوا[2]

فالشاعر يخاطب فرنسا بكل ثقة وإيمان أن الثورة هي التي تفصل بينها وبين الجزائريين وليس تلك الأكاذيب.

والملاحظ أن مفدي زكريا انتقى لغة فائضة بالحس الثوري، فلغة الكلام مع الاستعمار تعطلت ولغة المفاوضات تجمدت، ولغة السياسة أخرست، ولم تبق إلا لغة واحدة تتكلم إنها لغة الرصاص التي توحي بصورة واضحة إلى الثورة المجيدة، والرغبة الكبيرة في الجهاد التي قفزت إلى قمم الأطلس وساحات المعارك وأخرجتها الانتفاضات إلى عالم جديد.

1- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص17.
2- المصدر نفسه، ص18.

هـ- الافتخار بالثورة والثوار:

من خلال أساليب الشاعر نلمس ثوران عاطفته وجيشان مشاعره وقوة اندفاعه، وافتخاره بثورة شعب بأكمله وصموده بالسجن فلا تخيفه القضبان، ولا قساوة السجّان، ولا ظلم الجلاّد، إنه بطل صابر محتسب، كيف لا ومفدي سخّر قلمه ولسانه للدفاع الجزائر أمة وشعبا، وطنا وتاريخا، ثورة وأصالة، فالشاعر سخّر جلّ شعره للذود عن حمى الوطن ضد كل غاصب مستبد، إذ عشق الجزائر في فلسفة الشاعر لا مثيل لها.

وفي قصيدة 'الذبيح الصاعد' يظهر بيت كأنه جوهرة ثمينة وسط خيط اللآلئ إذ يقول:

أنا إن مت فالجزائر تحيا حـرّة، مستقلّة، لـن تبيدا[1]

والملاحظ في هذا البيت عنفوان الشباب وقوة الضمير، وجدّة الحياة وجيشان العاطفة، وثبات المبدأ وأصالة المبدع وشاعرية الفنان.

ويقول في موضع آخر في حب الجزائر من قصيدته 'القافية':

أحبها، مثل حب الله، أعبـدها آمنت بالله، لا كـفر، ولا ترق
أرض الجزائر في إفريقيا، قدس رحابها، من رحاب الخلد، إن صدقوا[2]

فالجزائر شيء مقدس وثمين له حلاوة العبادة ولذة الإيمان، إن الشاعر لا يتخاذل في فداء وطنه بروحه وبأعز ما يملك، فإذا كان المؤمن يتقرب إلى الله بالأضحية والقربان، فإن مفدي يتقدم بروحه الطاهرة فداء لوطنه الغالي.

إضافة إلى كتاباته السابقة نجد كتابته في رثائه وتغنيه بأبي الثورة الجزائرية وبطل مقاومتها 'الأمير عبد القادر' الذي دوّخ فرنسا في جهاده فيقول:

إذا ذكر التاريخ أبطال أمـــة يخرّ لذكراك الزمان يسجد
وإن تذكر الدنيا زعيما مخـلدا فإنك في الدنيا الزعيم المخلّد
أثرت على الظالمين حربا لم تزل عليهم تلظى كالجحيم وتوقد
فما خمدت نيران حربك لحظـة وهيجان نيران الجزائر تخمد[3]

ففي هذه الأبيات يذكّر الشاعر بشخصية الأمير عبد القادر وما قدمه في ثورته التي امتدّت جذورها الى ثورة الفاتح من نوفمبر الخالدة، فالأمير عبد القادر كان بطلا عظيما يشهد له التاريخ ويشهد له كل فرد من أفراد الشعب الجزائري إلى اليوم.

1- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص10.
2- المصدر نفسه، ص26.
3- المصدر نفسه، ص173.

ومفدي زكريا هو نفسه مجاهدا بقلمه، رغم كل أساليب التعذيب والتنكيل، إلا أنه يعبّر من خلال شعره على عزمه هو وشعبه على عدم الرضوخ والاستسلام للمستعمر فيقول:

أدخلونا السجون جرعونا المنون
ليس فينا خؤون ينثني أو يهـون
اجــلدوا... عـــذِّبوا...
واشنــقوا... واصـــلبوا...
واحــرقوا... واخـــربوا...
نحن لا نرهب
لا نمل الكفاح لا نمل الجهاد
في سبيل البلاد[1]

فالشاعر يقول في هذه الابيات للمستعمرين عذِّبونا كما تشاؤوا، ودمِّروا وأحرقوا ومارسوا إجرامكم كيف ما شئتم فنح لن نمل الكفاح عن جزائرنا، ولن نتوقف عن الجهاد في سبيل الله وتحقيق حريتنا.

وما يمكن استخلاصه من هذا الفصل، هو أن قصائد الشاعر الكبير مفدي زكريا في ديوان اللهب المقدس أغلبها ينبض بالحس الثوري، كيف لا وهو الذي سخّر قلمه للجزائر الأبية وثورتها العظيمة.

1- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص87.

خاتمة:

وأهم ما استخلصناه من هذا البحث، هو أن مفدي زكريا يعدّ في طليعة الشعراء الذين حملوا على عاتقهم قضايا شعبهم، ودافعوا عن وطنهم بقلمهم، فكان ذلك الشاعر الحامل لقضايا أمته، المتغني بآلامها وآمالها الرافض لكل أشكال الاستعمار وبالتالي نستنتج ما يلي:

- الحس الثوري تعبير عن التمرد والعصيان ورفض الجبروت والطغيان، وهذا ما برز فيه مفدي وتميز به عن غيره.
- تميزت لغة شعر الرثاء عند مفدي بكثرة استعماله للألفاظ التي توحي دائما على الثورة، مما يضفي جمالية أسلوبية فنية خاصة على قصائده.
- تميّز قصائد الرثاء باستعمال الخيال كبديل عن الواقع المرير.
- إن مظاهر الحس الوطني والحس الثوري عند مفدي توحي بأنه تشرّب من الوعي الوطني حتى الثمالة.
- إن ما يبدو من قوة التعبير في شعره ما هي إلا نتاج للقوة النفسية التي يتمتع بها الشاعر.
- تأثر الشاعر بالأسلوب القرآني والشعر التقليدي الذي نلمسه في قصائده.
- قوة العاطفة النابعة من حب الوطن والإخلاص له.
- كثرة الأفعال الدالة والموحية والمعبرة عن الثورة.

فشاعرنا الكبير لن تفيه الدراسات المختلفة بحقِّه لما قدمه لهذا الوطن الغالي.

المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

1- اللهب المقدس، مفدي زكريا، دط، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.
2- ديوان ابن الرومي، ج1، ط1،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002.
3- ديوان ابن سهل الأندلسي، تقديم إحسان عباس، دط، دار صادر، بيروت، لبنان.
4- ديوان ابن زيدون، تح: كرم البستاني، دط، دار صادر، بيروت، لبنان.
5- ديوان ابن هاني الأندلسي، دط، دار صادر، بيروت، لبنان.
6- ديوان الخنساء، تح: عبد السلام الحوفي، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006.
7- ديوان المتنبي، دار الجيل، دط، 2005.

ب- المراجع:

1- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية '1930-1945'، ج3، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.
2- أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة ودراسات في الأدب الجزائري الحديث وتجارب في الأدب والرحلة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
3- أحمد شوقي، الشوقيات، مج1، تح: علي عبد المنعم عبد الحميد، ط1، دار نوبار للطباعة، القاهرة، مصر، 2000.
4- أحمد شوقي، الشوقيات، مج2، تح: علي عبد المنعم عبد الحميد، ط1، دار نوبار للطباعة، القاهرة، مصر، 2000.
5- حواس بري، شعر مفدي زكريا: دراسة وتقويم، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.
6- سراج الدين محمد، الرثاء في الشعر العربي، دط، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان.
7- عبد الجاسم الساعدي، الشعر الثوري الجزائري بين حركة الإصلاح والثورة، دط، سلسلة الدراسات، الجزائر، 2002.
8- عبد الرحمن شكري، دراسات في الشعر العربي، تح: محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، مصر، 1994.
9- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث: تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلام، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
10- صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

11- رابح لونيسي، مفدي زكريا شاعر الثورة، دط، دار المعرفة، الجزائر.
12- شاهين عطية، شرح ديوان أبي تمام، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003.
13- مصطفى بيطام، الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي 1954-1962، 'دراسة موضوعية وفنية'، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998.
14- محمد عيسى وموسى، كلمات مفدي زكريا في ذاكرة الصحافة الوطنية، دط، مؤسسة مفدي زكريا، الجزائر، 2003.
15- محمد ناصر، مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، دط، المطبعة العربية، 1984.
16- محمد زغلول سلام، مدخل إلى الشعر الجاهلي، دراسة في البيئة والشعر، منشأة المعارف، دط، الإسكندرية، مصر.
17- يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا: دراسة فنية تحليلية، ط1، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 1987.

ج- المواقع الإلكترونية:

1- http://www.djazairess.com/algeriatimes/1437

الفهرس

مقدمة
الفصل الأول:
1-حياة مفدي زكريا.....04
2- مفهوم الثورة.....08
3- مفهوم الشعر الثوري.....09
4- مصادر ومظاهر الحس الثوري عند مفدي زكريا.....10
الفصل الثاني:
1-الرثاء عند القدماء.....19
2- الرثاء عند المحدثين.....24
3- الحس الثوري في شعر مفدي زكريا.....27
أ- رثاء المجاهد الشهيد.....28
ب- رثاء المجاهدة الشهيدة.....30
ج- هاجس الحرية والتحرر.....31
د- الانتقال من زمن العتاب إلى زمن الجهاد.....33
خاتمة
المصادر والمراجع